قصة قصيرة

ليس هذا كل شيء

بقلم: أحمد علي آل مريع
السعودية

الساعة

الخشبية أعلى الجدار تشير إلى الثانية صباحاً، المكتب الوثير، يبدو ساكناً ما خلا نسمات عليلة تتسلل برقة متناهية عبر باب الشرفة المشرعة على الوادي، لتعبث بأطراف الأوراق المتكدسة على المنضدة. كان أبي وقتها مستنداً على حائط الشرفة مرسلاً بصره خلف الظلام المحيط بكل شيء حول بيتنا، وضوء خافت يضيء إحدى زوايا الفناء..

كنت للتو قد فرغت من تنظيم الحقيبة المدرسية لأختي الصغرى استعداداً ليوم جديد.. كان الجو بديعاً، والمساء هادئاً إلا من نباح متقطع قادم من قلب الظلام خلف الوادي.

ظهر لي أن والدي لم يشعر بوجودي في الحجرة، مؤكد أن فكرة خصبة تسيطر على تفكيره، فمفكر مثله لا يستغرق في هذا الصمت دون أن يصارع حلماً ما، هذا يؤكده قلم الرصاص المبري بعناية .. والأوراق المجموعة بحرص شديد.

اقتحمت باحترام خلوته في الشُرفة دون أن أنبس بحرف. رمقني بنظرة خاطفة، ثم عاد فأرسل بصره وراء المجهول، كل شيء ساكن من حولنا، حتى تلك المعركة غير المتكافئة بين ضوء المصباح الخافت وبين جيوش الظلام المتكالبة عليه، كانت بدون أصوات.. أكره السكون السرمدي.. أشعر أنه يجعلني في مقابلة نفسي المحبطة..هذه السنة الثانية بعد تخرجي من الجامعة؛ ولم أتسلم وظيفتي المستحقة، كانت هذه الفكرة الوحيدة المسيطرة علي طوال وقت الفراغ.. لم يقطع تسلسل أفكاري إلا صوت والدي يشق سكون المكان.

- ياسمين، ألا يوحي لك هذا المشهد بشيء؟! وأشار بسبابته إلى جحافل الظلام وهي تتكالب على الفارس الوحيد بزاوية الفناء الشرقية، وأردف قائلاً: هناك عند المصباح!!

- قلت متصنعة الحكمة: الأمل.. الطموح..!! كنت أود أن أبدو مثالية، ظننته يحدثني عن معاناتي، ويزف لي شيئاً من الطمأنينة لأعود إلى سكينتي.. كان ما يفكر به أبعد بكثير من حدسي المتسرع.. واصل والدي:

- الجهل والظلم والباطل مهما تكالبت على الحق لن تستطيع قتله، قد تحاصره.. قد تضيق عليه.. قد تعزله عما حوله.. لكن سلطان الحق - يا بنتي - يأبى أن يتلاشى.. ولو انعزل.. ولو كان فرداً.. الفرد وحده أمة!!

صمت طويلاً وهو يرسل بصره باتجاه الجنوب، وراء عدوة الوادي القصية؛ حيث غابة كثيفة من الأشجار الجبلية يلفها الظلام، ثم قال دون أن يلتفت إليّ:

- أنصتي؛ هل تسمعين شيئاً؟!

- لا.. لا.. فقط نباحاً، أصواتاً بعيدة لكلاب مسعورة!!

- ليس هذا كل شيء!! تلك هي الحقيقة الحاضرة هنا، أما الحقيقة الكامنة فهناك.. العالم - كل العالم.. هناك الصراع بين البشر وبين الخير والشر.. يا ابنتي...!! قال الكلمة الأخيرة وهو ينظر إليّ، ثم أخذ يتوكأ على عصاه نازلاً.. تبعته ببصري حتى غاب عني وسط الظلام.. عدت وحيدة، أخذت أتأمل المعركة بين الظلمات والنور..